الفصل الثالث

مضامين الشعر العربيّ ومعانيه

أهم موضوع تناوله الشعر العربى القديم تناولاً جديداً لم يسبقه إليه شعر غيره هو الحب . . . الحب العاطفى الشريف . . .

انفرد ذلك الشعر العربى فى إبان العصر الإسلامى بالتعبير عن الحب الطاهر ، المتولد من حاجات الروح ، المنزّه عن رغبات الجسد ... الحب الذى يحفز العاشق إلى بلوغ أنبل الغايات ، و يصونه من الانحدار إلى خسيس الرغبات . . . الحب الذى رقق مشاعر الإنسان ، وهذّب أخلاقه ، ونقله من عهد الهمجية الحيوانية إلى عهد التحضر . . . الحب الذى قال عنه ستيفان زفايج فى قصيدة يخاطب به خالقه :

وبثثتَ فينـــا ذلك الحب الذى دار الوجـــود عليـــه حيث يدارُ

وقبل أن نتحدث عن هذه العاطفة النبيلة التى عبر الشعر العربى عنها ، ولقنها لسائر الشعوب ، نبدأ بإعطاء فكرة للقارئ عن مفهوم الحب لدى الإغريق وغيرهم من الأمم القديمة ، وندع للفيلسوف إنجلز هذه المهمة . . . فنسجل قوله :

« ظهر الحب الجنسىّ تاريخيًّا — لأول مرة — فى صورة عاطفة مشبوبة ، وبدا كأنه (الشكل الأسمى) للغريزة التناسلية . . . ولكننا نرى فى جميع أطوار التاريخ أن اقتران الزوجين لم يكن يتم بدافع الحب ، بل بإرادة أهلهما الذين كانوا يقررون زواجهما بدافع المصلحة ، على أن يتكفل الزمن بتقريب كل منهما إلى الآخر ، وحملهما على اعتياد العلاقة الزوجية . بيد أن العاطفة الضحلة المتولدة من تلك العلاقة لم تكن ميلاً ذاتيًّا ، ولكن واجباً موضوعيا . أما رابطة الحب المشابهة لما يكابده الناس فى هذا العصر فلم يظهر لها أثر فى مجتمع الأحرار القديم . . . كان الحب فى ذلك المجتمع يتولد من الخيانة الزوجية . كان يحيك المكائد للفوز بملذات الفسق . . . إن الحب الجسدىّ الذى ساد العصر القديم ، وشبيهه الذى نما فى العصر الوسيط ، لم يترعرعا فى أحضان الزوجية ، ولكن فى حمأة الرذيلة . . . وقد سبق لنا شرح الحب الطاهر ، حب الفروسية الذى عرفته أوربا فيما بعد . . . بيد أنه لا تزال

بين الحب الفاسق الذى يهدم الزوجية ، والحب الطاهر الذى يبنيها ويدعمها ، شقة طويلة لم يقطعها ذوو النفوس النبيلة إلى آخر الشوط . . . » .

وبالرجوع إلى ملاحم الإغريق ومسرحياتهم نجد فيها البرهان على صحة القول المتقدم . فهى عند تعرضها للحب لا تصور منه إلا لونه العتيق الذى وصفه لنا ذلك الفيلسوف . . . لا تصور إلا الحب الضحل المتولد من العلاقة الزوجية المفروضة على الزوجين . والحب الفاجر . . . حب الزوجة التى تخون زوجها لتستمتع بوصل عشيقها . وحب العشيق الذى يقتل الزوج ليخلو له الجو ، ويقترن بأرملته . . . وتتكرر المأساة فيقتله عشيق جديد . . . إن الحب الذى تصوره لنا ملاحم الإغريق ومسرحياتهم هو الحب الجسدىّ العنيف المنتقم ، الحب الذى تراق فى سبيل ملذاته الدماء ، وتزهق الأرواح ، وتشعل الحروب . . . الحب الذى يتحرق إلى القسر والأسر والاغتصاب ... الحب الذى تبثه بين الضلوع المتحرقة آلهة الإخصاب ... أما الحب الإنسانى . . . الحب العفّ الوفىّ . . . الحب الذى يبتعث المروءة والنبل والنخوة والنجدة . . . الحب الذى عرفه الإنسان لأول مرة فى ربوع نجد ، فلم تعرفه أوربا إلا بعد اتصالها بالعرب ، ولم يعبر عنه الشعر الأوربىّ ، والقصص الأوربية إلا منذ ذلك الحين .

ولكن المتعصبين من الأوربيين ينكرون هذه الحقيقة إما عمداً ، وإما غفلة أو جهلاً ، ويزعمون أو يحسبون أنهم اختصوا دون غيرهم من الناس بسمو العاطفة ، وانفردوا بتقدير المرأة واحترامها . فى حين لم يعرف الشرقيون بعامة ، والعرب بخاصة ، خوالج الحب العنيف ، ولم يكابدوا إلا الجوع الجسدىّ ، ولم يتعلقوا بالنساء إلا لإشباع ذلك الجوع . وقد ساعد على رواج هذه الأكذوبة تكالب أفراد من سراة العرب على الملذات بعد أن ازدهرت الحضارة العربية ، ووفرت لهم أسباب اللهو والمتعة . ولكن بريفو أعاد الحق إلى نصابه بقوله :

« وليس هناك خطأ أفدح من الخطأ الذى كثيراً ما وقع فيه النقاد ، وهو تصورهم أن العرب لم يعرفوا من الحب إلا جانبه الجسدىّ الشهوانىّ ، فالمثالية وتبجيل المرأة هما من بين تقاليدهم التى ترجع حتى إلى ما قبل ظهور الإسلام ، وهما عندهم فى مقام ولائهم للقبيلة ، وفى مقام فروسيتهم التى كرّسوها للمرأة ، وتناولتها موضوعات

شعرهم التقليدىّ »[١] .

وتوسع ذلك الكاتب الفرنسى المنصف فى شرحه لرأيه المذكور بقوله :

« يعد المعتمد ، أمير إشبيلية ، وابن زيدون القرطبى ، من أكبر الشعراء الذين أذاعوا هذا اللون من الشعر ، فمنظوماتهم تمجد الحب بحسبانه أسمى ألوان السعادة ، ومصدراً لأشرف أنواع الإلهام . . . وهى تتغنى بمفاتن حبيبة القلب ، وبأحزان العاشق التعس ، وقسوة آسرة لبه . وتتضمن غير ذلك من الضروب الشعرية المستحدثة التى شاعت هنا وهناك ، ومن أغانى الفجر والربيع . وعندما انتشر الشعر العربىّ الأندلسىّ فى أوربا لم يكن فى ربوعها شعر من نوعه . . . لم يكن هناك شعر أوربى ، شعبىّ أو غير شعبىّ ، فرنسىّ أو أجنبىّ ، يبدو عليه من قريب أو بعيد شبه يماثل الشبه القائم بين منظومات الشعراء التروبادور وذلك الشعر العربىّ السابق عليه بأكثر من قرنين من الزمان . . . إن هذه الحقيقة تقفز إلى الأعين لأول وهلة . . . »[٢]

ولم يكتف الكاتب المذكور بإصدار تلك الأحكام ، ولكنه اتخذ من رأى ابن جزم فى الحب سنداً يؤيدها ، فقال فى ذلك : « يرى على بن حزم فى كتابه طوق الحمامة أن فقدان الثقة فى الحب دليل على خسة المحب ، وضعة أصله ، وافتقاره إلى الشعور النبيل . . . ومما قاله فى إحدى قصائده إن نظرة واحدة من حبيبته تكفيه . . . وهو يطيل الحديث عن الطهر ، وسمو المتحلى به ، ويولى ذلك عناية خاصة ؛ ويؤكد أن اتصال الأرواح أروع ألف مرة عن اتصال الأبدان . ويشير فى الفصل الذى كتبه تحت عنوان (الحب من أول نظرة) إلى ما حدث لابن هارون الرمادىّ — وهو من شعراء الأندلس المرموقين — إذ وقع بصره فى قرطبة مرة واحدة على المرأة التى هام بها ، فكرس لها بعد تلك النظرة كل ما نظم من شعر حتى آخر أيامه . . . وهذا يذكرنا بسير بعض الشعراء التروبادور الذين تدلهوا هياماً بنساء لم تربطهم بهن إلا مثل تلك النظرة التى لم تتكرر . . . وإذْ تحدث ابن حزم عن مختلف الحالات التى تشعل ضرام الحب ، ركز اهتمامه بصفة خاصة على النظر ،

---

(١) ص ٢٣ من كتابه السابق الذكر .

(٢) نفس الصفحة من الكتاب السالف الذكر .

بحسبان أن الحب ينفذ إلى القلب عن طريق العين التى هى وسيلة النفاذ إلى الروح . وقد شاعت هذه النظرية بين الشعراء التروبادور ، وازدادت شيوعاً بين شعراء إيطاليا خلال القرن الرابع عشر .

كذلك عبر الشعر العربىّ الأندلسىّ عن انطواءات الصوفية الباطنية ، ولم يلبث الشعر الأوربى العاطفىّ أن وقع تحت تأثير هذه النزعة على نطاق واسع ...»[١]

وأبى ذلك المستشرق الفرنسىّ المؤمن بالحق أن يجتزئ إنصافه للشعر العربى فقال :

« ينبغى لنا أن نعترف بأن منظومات الشعراء التروبادور الفرنسيين لم ترتفع قط إلى مستوى الإلهام الشعرى الطاهر الذى أنعش الشعر الإسلامى . وإذا كان الشعراء المذكورون قد استعاروا قدراً كبيراً من مصطلحات ذلك الإلهام ، فإن المرء لا يستطيع أن يزعم أن شعرهم يرقى إلى مرتبة الشعر العربىّ الأندلسىّ . ويتضمن مثل معانيه المشبعة بروح الفروسية . . »[٢]

ومما زاد رجال العرب تعلقاً بنسائهم ، وتقديراً لهن ، وإعلاء لشأنهن ، تمكن هؤلاء النساء من أن يهيئن لأنفسهن مكانة مرموقة فى عالم الأدب والفكر والسياسة . وقد أقر لفيف من المستشرقين بذلك فقالوا : إن العرب فى فجر الإسلام لم يعرفوا نظام الحريم ، ولم تحجب المرأة وجهها بالنقاب إلا نادراً ، ولم تتوار خلف جدران منزلها ، بل كانت تخرج سافرة ، وتتمتع بحريتها كاملة ، وتغشى مجالس الرجال ، وتحصّل ما يحصّلون من علم ، وتفوق أختها الأوربية ثقافة واستنارة . . . لقد كانت تشغل فى كثير من الأحيان مناصب الدولة الرئيسية ، وتشتغل بالأدب . وتنظم الشعر ، وتنسخ الكتب بخط أنيق رشيق ، وتجلس بين الشعراء المتبارين فى منصة التحكيم[٣] .

وقع رجال العرب فى أسر نسائهم ، وأصبحت عبارة « أسير الغوانى » كنية لبعض شعرائهم ، ثم أطلق « البروڤانسيون » هذه الكنية على الشعراء التروبادور

---

(١) ص ٢٥ من كتابه المذكور .

(٢) ص ٢٦ من نفس المرجع .

(٣) انظر صفحة ٢٨٧ بالجزء الأول من كتاب « تاريخ إسبانيا » لألتاميرا ، وصفحة ١٤ من كتاب « الحياة فى إسبانيا الإسلامية » . وكتاب ابن زيدون للكاتب الفرنسى ا . كور ، وصفحة ١٤ من كتاب « المعلقات » للأخوين « آن وويلفرد بلنت » .

الذين حاكوا زملاءهم العرب فى وصف ما يكابدون من قسوة الحبيبة وعنتها .

ولم تكتف المرأة العربية ، فى سبيل إعلاء قدرها ، بمطاولة الرجل فى تحصيل العلم ، والاشتغال بالأدب والسياسة ، ولكنها عرفت ، قبل المرأة الأوربية ، كيف تعلى قدر جمالها ، وتكسبه فتنة تستحوذ على ألباب الرجال ، وتستثير إعجابهم وتقديرهم ، وتشغلهم عن الرغبات الحسية . . . لقد عرفت كيف تبهرهم بمميزات معنوية تخلع على جسدها جمالاً قدسيًّا .

قال « بيير ديكس » فى كتابه « القصة فى سبعة قرون » : « تنظر المرأة الأوربية اليوم إلى المرأة العربية نظرة ازدراء ، فهى تتصورها أمة تعيش حبيسة بين الجدران ، مع زميلاتها الحريم ، لتبهج الرجل وتحظيه ، وتقوم على خدمته . . . »

وقد غفلت المرأة الأوربية عن حقيقة لو فطنت إليها لنهنهت من كبريائها ، فهى لم تبتدع أسباب رقيها ، ولكنها ورثتها عن المرأة العربية .

كانت المرأة « البروڤانسية » أول امرأة أوربية اشتغلت بالأدب . وقد أقدمت على ذلك تشبهاً بنساء العرب . واستطاعت بعد استنارتها أن تفوز بحريتها بعد أن كانت تعيش فى عزلة وراء جدران بيتها . ولم تلبث أن وطدت لها مكانة بين الشعراء ، وقامت بدورها حكماً بين المتبارين منهم . وتعطرت كالمرأة العربية بعطور الشرق ، وتزينت مثلها بالأصباغ ، فأثارت بذلك حسد النساء فى شمال أوربا[1].

ولم تعد المرأة العربية تبهر الشعراء بجمالها وعلمها فحسب ، ويقتصر إلهامها لهم على هذه الناحية . ولكن فنون أناقتها وتجملها ألهمتهم أن ينظموا أيضاً كثيراً من أبياتهم الرائعة . . . كانت تتزيى ، حتى فى الجاهلية ، بالدمقس والحرير ، فى حين لم تلمس جسد المرأة الأوربية غير الملابس الكتانية الخشنة . وقد قال المنخل اليشكرى فى ذلك ، وهو من شعراء الجاهلية :

ولقد دخلت على الفتا ... ة الخدرَ فى اليوم المطير
الكاعب الحسناء تر ... فل فى الدمقس وفى الحرير

وذكر عمر بن أبى ربيعة لبس المرأة العربية فى عصره بقوله :

---

(١) تراجع صفحتا ٧٤ ، ٧٥ من كتاب بريفو السالف الذكر .

وقامت إليها حرتان عليهما كساءان من خزٍّ دمقسٌ وأخضرُ

وكانت المرأة العربية ترتدى الملابس الشفافة :

ولبس عباءة وتقرّ عينى أحبُّ إلىّ من لبس الشفوف

وكانت تتزين بالعقود ، وتشد على خصرها لتحتفظ باعتدال قوامها :

مخصَّرة الأوساط زانت عقودها بأحسن مما زينتها عقودها

وكانت تستعمل الأصباغ لتزيد جمالها فتنة — وقد أشرنا إلى أن المرأة الأوربية أخذت عنها هذه العادة ، ولم تقلع عنها إلى اليوم — وكانت تصطنع أيضاً النطق الجذاب كما تفعل الباريسيات فى عصرنا الحاضر ، وقد سجل المتنبى ذلك فى قوله :

نفسى فداء ظباء ما عرفن بها مضغ الكلام ولا صبغ الحواجيب

حسن الحضارة مجلوب بتطرية وفى البداوة حسن غير مجلوب

وقال الشريف الرضىّ :

وألمستنى وقد جدّ الوداع بنا كفًّا تشير بقضبان من العنم

وحرصت المرأة الأوربية على استعمال المشد ، واعتادت فى القرون الوسطى أن تضع تحت زنارها قفصاً من السلك لتبدو ممتلئة الردفين . وقد حاولت بذلك أن تبدو فى مثل قوام المرأة العربية التى صورها الشعراء فى أبيات كثيرة نقتطف منها :

هيفاء مقبلة عجزاء مدبرة ما عابها قصر يوماً ولا طولُ

ومنها :

بيضاء باكرها النعيم فصاغها بلباقة فأدَقّها وأجلها

ومنها ذلك البيت الذى سبق أن أوردناه :

أبت الروادف والثدىّ لقمصها مَسَّ البطون وأن تمس ظهورا

وفى الوقت الذى تحاشت المرأة الأوربية فيه الاستحمام ظنًّا منها أن عدم العناية بنظافة جسدها دليل على عفتها كانت المرأة العربية تدرك أن النظافة من الإيمان ، وتكثر من الاستحمام . ومن أبيات الشعر التى أشارت إلى ذلك :

ولقد قالت لجارات لها وتعرّت ذات يوم تبترد

أكما ينعتنى تبصرننى عمركن الله أم لا يقتصد ؟

ومنها قول المتنبي :

ولا خرجن من الحمـــام مائلة أوراكهن صقيـــلات العراقيب

وكانت العناية بتصفيف الشعر عادة مألوفة :

وكسَّر الشعر واواتٍ ورجَّله . . .

وتعلمت المرأة الأوربية من أستاذتها العربية كيف تتأنق فى مشيتها وحركاتها وإيماءاتها ، قال المتنبي :

تشبه الخفـــرات الآنسات بهـــا فى مشيها فينلنَ الحسن بالحيـــل

وقال المنخل اليشكرى :

ودفعتهـــا فتـــأودت مَشْيَ القطـــاة إلى الغـــدير

وقال آخر :

هيفاء ميساء مصقول عراقبها تمشى الهوينى كما يمشى الوجى الوجلُ

وقد انعكس ذلك على اللغة العربية التى حفلت ، دون سائر اللغات ، بالكلمات التى تصور مشية المرأة الأنيقة ، مثل التبختر والتثنّى والتأوّد وما إلى ذلك .

وعرفت المرأة العربية كيف تأسر الرجال بحسن حديثها . . . قال كثيِّر :

من الخفرات البيض ودّ جليسها إذا ما انقصت أحدوثة لو تعيدها

وقال أيضاً :

رهبان مدينَ والذين أراهمُ يبكون من خوف العذاب هجودا

لو يسمعون كما سمعت حديثها خروا لعـــزة ركّعاً وسجودا

وحتى الحجاب الذى عابه الأوربيون على الشرقيات قلدته المرأة الغربية ، والنقاب الشفاف الذى تستعمله الأوربيات الأنيقات إلى اليوم دليل على ذلك .

ولم تفرّط المرأة العربية فى نفسها ، ولم تبتذل جمالها ، بل كانت بعيدة المنال ، ذات تمنع ودلال ، والشعر العربى يزخر بوصف ذلك ، وبأثره فى إذكاء مشاعر الحب النبيل ، قال الشاعر :

وإن أكُ عن ليلى سلوت فإنمـــا تسليت عن يأس ولم أسل عن صبر

وقال كثير :

يمنّيننا حتى ترف قلوبنا رفيف الخزامى بات طلٌّ يجودها

وقال المتنبي :

وغضبى من الإدلال سكرى من الصبا ... شفعتُ إليها من شبابي بريِّقِ

وقال الشريف الرضيّ :

عجبت من باخل عنى بقبلته ... وقد بذلت له دون الأنام دمى

وقال مهيار الديلمى :

آه على الرقة فى خدودها ... لو أنها تسرى إلى فؤادها !

وقال آخر :

أحبًّا على حب وأنت بخيلة ... وقد زعموا ألا يحب بخيل

وعرفت المرأة كيف تأسر قلب الرجل بسحر نظراتها . . . قال الشاعر فى ذلك :

رمتنى بلحظ لو كميًّا رمت به ... لبُلَّ نجيعاً نحره ونبائقه

وقال المتنبي :

ولم أر كالألحاظ يوم رحيلهم ... بعثْنَ بكل القتل من كل مشفق

لقد عرفت المرأة العربية الشرقية ، وزميلتها الأندلسية التى ورثت عنها صفاتها ومواهبها — عرفتا كلتاهما ، بفنون التجميل هذه ، كيف تشغلان الرجال بغير مطالب الجسد ، وكيف تشركان الشعر فى تحقيق هذه الغاية . . . عرفتا كيف تنميان ذوق الشعراء الفنى ، وتصقلان موهبتهم الأصيلة ، وتستثيران فيهم حب الجمال الخالص ، وتمدانهم بالموضوعات الأدبية المبتكرة ، والمعانى الشعرية المحلِّقة . وعلى ذلك ساهمتا بنصيب وافر فى تحويل رغبات الرجل الدنيا إلى ذلك الحب الطاهر العذرىّ الذى اجتث همجيته ، وحوّله إلى إنسان متحضر .

ومن الأخطاء الشائعة نسبة الحب الطاهر ، المنزه عن النزوات الحسية ، إلى أفلاطون ، وتسميته « الحب الأفلاطونى » . فهذا الفيلسوف الإغريقى لم يبشر قط بالحب المذكور ؛ بل لم يشر إليه إشارة مباشرة . . . ومرجع هذه الخلط إلى اشتهار أفلاطون بازدراء ماديات الحياة ، وحقائقها الواقعية . ولعل قول چون فريڤيل التالى يجلو هذه الحقيقة :

« كانت فكرة الجمال فى نظر أفلاطون ذكرى حياة سالفة قضاها الناس فى

---

(١) النسخة العربية من كتابه « الأدب والفن فى ضوء الواقعية » ص ٣ ، ص ٤ .

الجنة قبل طردهم منها . وفيما يلى وصفه لهذه الحياة « كان الجمال يسطع فى كامل لألائه ونحن نسير فى حاشية إله الآلهة چوپيتر . . . وما كدنا ننتشى بمتعة المشاهد الساحرة حتى اتصلنا بالأسرار الخفية الجديرة بأن ندعوها أسرار السعداء . واحتفلنا بها ونحن منزهون عن النقائص التى تنتظرنا فى العالم الأرضى . . . متحررون من ذلك اللحد الذى يسمونه الجسد . . . ذلك اللحد الذى نجره حيث نسير . . . وكان الجمال يتلألأ فى عالم روحانىّ » . . . هكذا يسطع الجمال الأزلىّ المطلق الذى يحاول الفن تصويره ، متعالياً على قبح الحياة الدنيا ؟ ! » . .

بهذا يسخر چون فريشيل من ذلك الفيلسوف المحلّق فى عالمه الأسطورىّ ، متعالياً على الحياة الدنيا ، غير مؤمن إلا بالجمال الخيالىّ المطلق . أما كل كائن جميل فى هذه الأرض فهو ناقص فانٍ ؛ هو قطرة فى محيط الجمال المطلق ، وهل للقطرة الضئيلة قيمة تذكر ؟

وبتطبيق ذلك لا يكون لجمال أية امرأة قيمة جديرة بتقدير ذلك الفيلسوف ، لأنه جمال نسبىّ زائل . . . فهل لهذا المذهب الجمالىّ النظرىّ علاقة بالحب العذرىّ ؟ . . . إنه لم يمجد أى لون من ألوان الحب المتولد من الجمال الأرضى ، مهما سما هذا الحب وتنزه عن الدنايا .

وإذا كان إقناع المتعصبين للغرب بهذه الحقيقة ، وبانتساب الحب العفيف إلى العرب ، يحتاج إلى مزيد من الاستشهاد بأقوال المفكرين الغربيين ، فلا بأس من التوسع فى ذلك حتى تزداد هذه الواقعة جلاء ، ويلم بها القراء من مختلف أطرافها .

أثبتنا فيما تقدم قول بريفو عن العرب بأنهم — على خلاف ما يشاع عنهم — لم يجهلوا الحب الطاهر المشبع بروح الفروسية ، وأن شعرهم عبر عن انطواءات الصوفية ، وبلغ من سمو العاطفة شأواً لم يبلغه الشعر البروڤانسىّ . . . ولكن هذه الوقائع التى ذكرها بريفو ، ورددها غيره من زملائه الغربيين ، لا تتضمن الحقيقة كاملة . فالمسألة لا تقف عند حد التساؤل أعرف العرب الحب الطاهر أم لم يعرفوه ؟ ولكنها تتجاوزه إلى تساؤل آخر هو : أسبقىّ العرب غيرهم إلى الاكتواء بالحب الطاهر ، وإلى التعبير عنه بشعر بث ضرامه فى قلوب سائر البشر ، أم أنهم عرفوه عن غيرهم ؟ . . .

يكفى الرجوع إلى تاريخ الشعر بعامة للتثبيت من أن شعراء نجد ، وعلى الأخص شعراء بنى عذرة ، كانوا روّاداً فى هذا المضمار ، وأساتذة ملهمين لغيرهم من الشعراء العرب والأوربيين .

وقبل الاسترسال فى القول نلفت النظر إلى ما سبق لنا تسجيله من أقوال النقاد الغربيين الذين اعترفوا بأن الشعراء التروبادور استلهموا العرب ، وحاكوا الشعر العربىّ شكلاً ومضموناً ، ذلك الشعر الذى قال عنه بريفو « إنه يمجّد الحب بحسبانه أسمى ألوان السعادة ، ومصدراً لأشرف ألوال الإلهام . . . ولا يستطيع المرء أن يزعم أن منظومات التروبادور ترقى إلى مستواه . . . »

هذه حقيقة جديرة ألا تغيب عن ذهن القارئ عند استعراض الآراء التى أشاد أصحابها بمنظومات الشعراء التروبادور دون ذكر المصدر الذى استقت منه أساليبها ومعانيها . . .

من مؤرخى الأدب الذين فطنوا إلى أهمية الحب الطاهر ، والدور الذى لعبه فى تهذيب النفوس ، ورفع المستوى الحضارىّ ، كاتب نمسوى يدعى إميل لوكا ، أشاد بهذه العقيدة العاطفية ، ناسباً إلى الشعراء التروبادور شرف الفطنة إليها ، غافلاً عن الأصل الذى استقوها منه . . . وقد وضع فى ذلك بضعة كتب أهمها كتابه « تطور الحب » . ومما جاء فى هذا الكتاب : « أول تعبير عن الحب الحقيقى الصادق انبثق من إلهام تلقائى هبط على الشعراء التروبادور الأول الذين لم يستعينوا على إدراكه بأية معتقدات فلسفية . ويرجع إلى الشاعر البروڤانسى " برنار دى ڤينتادورن " ، وهو أكبر زملائه قدراً ، شرف السبق إلى الاحتفال بالحب العفّ . . وإذا كان هناك صاحب فضل على الحضارة يستحق أن يقام له تمثال ، فهو الشاعر المذكور ، دون أدنى جدال »[1] .

وهناك كتاب غربيون عديدون أقروا بفضل الشعر العذرى على الحضارة ، نذكر منهم « لوى چيليه » الذى وضع كتاباً عن « دانتى » قال فيه : « حقق الشعراء التروبادور عملاً خارقاً للعادة . لقد توجهوا بشعرهم إلى المرأة ، ورفعوها إلى مرتبة التقديس ، وأحدثوا بذلك ثورة أدبية بالغة الأثر . . . إن أولئك الشعراء القدامى

---

(١) ص ١٣٧ من كتابه المشار إليه .

لا يقرأ شعرهم اليوم أحد ، خدموا الأجيال التالية المتعاقبة ، ونقشوا المعالم الأساسية للحضارة فى أفئدتنا ، وأحدثوا فى عالم الأدب تغيراً كليا ، وتجديدات لا تحصى ... إن ذلك النوع من الحب الذى استحدثوه . . . ذلك الحب المنقطع الصلة تماماً بجيلهم وعواطفه التى من هذا النوع ... إنه ابتداع معنوىّ حقيقى ، وهو أكثر ما ابتدعه العصر الوسيط أصالة . . . لقد أصبحت المرأة دنيا . . . أصبحت عقيدة . . . » .

وغنى عن القول أن الحب الطاهر لم ينعكس فى منظومات الشعراء التروبادور كلها ، فقد ظلت النوازع الدنيا المتوارثة راسبة بين جوانح الكثيرين من أولئك الشعراء ، ووجدت متنفساً لها فى بعض شعرهم ، وهذا أمر طبيعىّ يلابس التطور الأدبىّ فى كل مكان . وقد حدث مثله فى الجزيرة العربية على أثر انبثاق الإسلام إذ ظل عمر بن أبى ربيعة يعبر فى شعره عن مغامراته الغرامية الفاسقة فى نفس الوقت الذى صوّر الشعراء العذريون خلاله أنبل العواطف البشرية . . . وكذلك اختلفت التيارات الشعرية فى الأندلس ، فسما بعضها سمو شعر العذريين ، وأسفّ بعضها الآخر إسفاف شعر السادرين الفاسقين .

ولكن هناك نقاداً مغرضين ، أو متشائمين ، اعتادوا أن ينظروا إلى الأمور من جانبها القاتم ، ويغمضوا أعينهم عن جوانبها المشرقة ، وينتقصوا قدر كل جميل جليل تتكشف عنه الحياة الدنيا . . .

ومن هؤلاء النقاد لفيف أصدر حكماً مجحفاً على منظومات الشعراء التروبادور كلها ، فجردها من كل ميزة ، ورماها بكل وصمة . ومثال ذلك قول الدكتور ڤاينهولد عنها : « إنها مجردة من كل إحساس جميل ؛ غير متحلية بالحياء . وليس هناك شعور باحترام المرأة إلا وطئته بالأقدام . . . » وقول « بيير أندرو » عنها أيضاً : « إنها لا تنم إلا على الاستهتار ؛ وإذا اتصفت بالرقة ، فإنها بعيدة عن أن تتصف بالنبل »[1] . . . وكذلك قول جانروا عنها فى بحث له منشور بمجلة « العالمين » الفرنسية : « إنها لا تعبر عن الحب الأفلاطونى بحال . ولكن الرغبات الشهوانية تتخذ فيها أشكالاً فجة ، بل وحشية فى بعض الأحيان » .

وقد أيدّ الكتاب المذكورون اتهامهم هذا بمقتطفات من منظومات أولئك

---

(١) كتابه : « حياة وأعمال الشاعر التروبادور ريمون دى ميرافال » ص ١٦٢ .

الشعراء تضمنت التعبير عن لهفتهم على ضم حبيباتهم إلى صدورهم ، والتمتع بدفء أجسادهن . . . ومما أخذوه أيضاً على الشعراء التروبادور وصمهم للمرأة بالخيانة ونقض العهود . ومن أمثلة المقتطفات التى استشهدوا بها قصيدة للشاعر « جيوم دى پواتو » قال فيها : « هل يقدر لى أن أستمتع بك ؟ . . . أحسب أنى سأموت لهفة على حبيبتى الجميلة إذا هى لم تدعنى إلى لقائها فى خدرها ، وإذا لم تسمح لى بتقبيلها هناك ومداعبتها ، وضم جسدها الأبيض الغضّ بين ذراعىّ . . . » .

ومنها قول « برنار دى ڤينتاردرن » فى إحدى قصائده : « آه لو يقدر لى رب السماوات والأرض أن أستمتع بها ! »

وكذلك قول « برترام » : « تبدو لى حبيبتى ، وهى فى إهاب جمالها ، يانعة الشباب ، عاشقة فاتنة . . . وما طالت صحبتى لها إلا ازددت تقديراً لجمالها ، ورغبة فى وصالها . إن جيدها الناصع البياض يشرق فيحيل الليل إلى نهار ، فإذا انحدر نظرى إلى سائر مفاتنها تألق العالم كله نوراً . . . » .

بيد أن الجدير بالملاحظة هو ما ينطوى عليه هذا الشعر من دلالة غفل عنها أولئك النقاد ، فالحرقات التى عبر عنها تنم على أن المرأة الأوربية تلقنت من المرأة العربية وقتذاك ضروب الصد والدلال ، وعرفت كيف تتجنب التردى فى وهدة الابتذال ، وسلكت السبيل الذى لابد أن يؤدى آخر الأمر إلى الفوز باحترام الرجل .

ومما يجدر بنا أن نلاحظه أيضاً هو إهمال أولئك النقاد ذكر منظومات الشعراء التروبادور المعبرة عن الحب الطاهر . فمن هذه المنظومات قصيدة « مركبرو » التى يقول فيها : « آه أيها الحب الرقيق ؛ يا منبع الطيبة التى أضاءت بنورها أرجاء العالم ؛ إنى أصيح قائلاً : شكراً لك ! »

ومنها قصيدة أخرى يقول فيها : « يا أيها الحب . . . يا من تماثل فضيلة الزمرد والعقيق ؛ أنت من أولك إلى آخرك مصدر كل بهجة . . . أنت المولى الذى يبسط سلطانه على كل صقع من أصقاع الوجود » .

ونختتم هذه المقتطفات بقول جيوم مونتانها جول : « ليس الحب إثماً ومعصية ، ولكنه فضيلة يتحول بها الأشرار إلى أخيار ، ويصبح بها الأخيار أفضل مما كانوا عليه . . . إن الطهر نفسه ينبع من الحب . . . ويستحيل على من يدرك حقيقة

الحب أن يصبح شريراً . . . وكل من يخطر له أن يدفع حبيبته إلى ارتكاب الإثم لا يحبها فى الواقع ، فما من عاشق مخلص يرغب فى تلويث شرف من يحب ؛ فالحب يضع نصب عينيه صيانة شرف المرأة الملهمة . . . والعاشق الذى يتنكب ذلك يلوّث اسم الحب ويغدر به » . . .

وقد يخطر على البال أن الفضل فى بعث الحب الطاهر الذى عبر عنه الشعراء التروبادور يرجع إلى المسيحية ، ولكن تعاليم الدين المسيحىّ لم تغير فى واقع الأمر شيئاً من التقاليد الهمجية ، والأخلاق البربرية الوثنية التى سيطرت على أمراء أوربا وسراتها قبل اتصالهم بالعرب . وقد اضطرت الكنيسة إلى التغاضى عن ذلك حتى تبقى على الصلة الواهية التى تربطها بهم[1] .

ونضيف إلى ما تقدم أن الكنيسة نفسها كانت واقعة تحت سيطرة الفكر الإغريقى ، ومن المعروف أن فريقاً من قساوستها كان يتعصب لأفلاطون ، وفريقاً آخر عارضه وتعصب لأرسطو ، فطغت معتقدات هذين الفيلسوفين وتعاليمهم على معتقدات المسيحية وتعاليمها . وكان أغلب المشتغلين بالأدب هم من رجال الكنيسة الذين لم يقتصروا على طرق الموضوعات الدينية والفلسفية ، ولكنهم تجاوزوها إلى الموضوعات الأدبية . وقد ظلوا فى كلتا الحالتين متأثرين بالفكر الإغريقىّ ، مقتصرين على الكتابة باللغة اللاتينية التى لم تعلم بها وقتذاك ، كما هو معروف . إلا فئة قليلة من المثقفين ، وبقيت مجهولة ، بطبيعة الحال ، إلا من تلك الفئة . . . وعلى الرغم من ذلك انتشر الفكر الإغريقى بين عامة الناس عن طريق السماع ؛ وتناقلت الألسنة قصص الإغريق الأسطورية التى لا يخلو بعضها من رموز أدبية ، ومعان شعرية . ولكن رواة تلك الأساطير مسخوا رموزها ومعانيها التى لم يتضح كنهها ، فتحولت فى أذهان العامة إلى مجرد خرافات خالية من كل قيمة أدبية ، وزادت نطاق الجهل المضروب على الشعوب استحكاماً .

لم يكن الأدب الأوربىّ يعكس وقتذاك واقع مجتمعه ، ولكنه كان يستمد موضوعاته من الأدب الإغريقى ، ويعبر عنها باللغة اللاتينية . . . كان غريباً عن مجتمعه مضموناً وشكلاً ، فكيف يتأتى أن يعبر عن أفكار ذلك المجتمع وخوالجه ؟..

---

(١) تراجع صفحة ٨٣ من كتاب بريفو السالف الذكر .

ولكن هذه الحال بدأت تتغير حين تجرأ بعض الكتاب على قدسية اللغة اللاتينية ، وأقدموا على الكتابة بلغتهم المحلية .

والرائد الفرنسيّ فى هذا الميدان هو الشاعر « بينييت دى سان مور » ، فقد أقدم ، عام ١١٦٥ ، كما قلنا ، على ترجمة «ملحمة طروادة » من اللاتينية إلى الفرنسية .

وما تعدّدت ترجمة الأعمال الأدبية الإغريقية إلى اللغة الفرنسية ، وتزايد عدد قرائها حتى حاول بعض أهل القلم تأليف قصص على غرارها . . . ثم لم يلبثوا أن تجاوزوا مرحلة المحاكاة . وتطلعوا إلى إنتاج أدب أصيل يعكس واقعهم ، بدل الاغتراف من معين أدب غريب عنهم ؛ أو التوليد منه . ولكن أعوزتهم نماذج من الأدب الإنسانىّ الواقعىّ يسترشدون بها وهم يخطون خطواتهم الأولى فى هذا المضمار ... وحدث فى هذا الأوان بالذات أن تهيأت الفرصة السعيدة ، ووجدوا النماذج المنشودة فى الأدب العربىّ الذى ترددت أصداؤه فى بلادهم . . . ونظم الشعراء التروبادور فى پروڤانس قصائدهم على منوالها . وظلوا يحاكونها حتى تجاوزوا مرحلة المحاكاة إلى مرحلة الإبداع .

وجد أولئك الشعراء فى الأدب العربى ، كما قلنا ، نماذج لكل من الشعر الطاهر والشعر العاهر ، فحاكى كل منهم ما راقه من تلك النماذج ووافق هواه .

ولكن روبير بريفو يرى أن الشعراء التروبادور لم يدركوا ، فى بادئ الأمر ، مضامين الشعر العربىّ ، ولم تخفق قلوبهم بالعواطف النبيلة التى عبروا عنها ، فهم لم يحاكوه إلا من ناحية الأسلوب والشكل ، ومما قاله فى ذلك :

« إن فلسفة الفضيلة ، فلسفة الحب التى طال ارتباطها بالشعر العاطفىّ المقتبس من الأندلس ، والتى سادت " دوائر الحب " فى پروڤانس ، استمدت من الإسلام أصولها . والشعراء التروبادور المتتلمذون على الشعراء العرب لم يحيدوا عن استغلال الفلسفة الصوفية ، إذ لم يكن فى وسعهم إلا أن يستعينوا بمذاهب الطهر والعفة . ولذلك حرصوا على أن يستمدوا العواطف التى يصفها العرب بالطهر — من الشعر الأندلسىّ القادر على تزويد فنهم بأناقة خاصة ؛ غير أنهم لم يتوسلوا إلى ذلك إلا بمحاكاة أسلوب ذلك الشعر دون أن يولوا الدوافع التى أوحت به اهتماماً جديًّا . وقد تعرضت منظوماتهم لسوء الفهم نظراً إلى أنهم استغلوا « المثالية » العربية ، وخلعوا

على شعرهم مظهرها ، وهى فى واقع الأمر غريبة عنه . . . لقد كانوا يكتفون حين أرادوا كشف أسرار النفس ، والتعبير على المبادئ السامية ، باقتباس نغمة الشعر الأندلسىّ وطريقة نظمه . . . كانوا يجدون فيه مختلف النماذج الجاهزة للمضمون والأسلوب المهذب . . » (١)

ولكن الشعراء العرب لم يكونوا كلهم ، بحكم التناقض الكامن فى مختلف الموجودات ، من طراز واحد ؛ فبينما اتصف بعضهم بالطهر ، وعكس فى شعره أنبل العواطف ، استسلم بعضهم الآخر لنزوات غرائزه ، ولم يتورّع عن تصويرها فى شعره شوهاء مفضوحة . وبالرجوع إلى منظومات الشعراء التروبادور نجد أنهم — كما سبق القول ، حاكوا العرب فى كل ما نظموا محاكاة عمياء ، خالية من كل ابتكار . فهم لم يقتصروا على استعارة التعبيرات العربية لاصطناع الشعر الرقيق العفيف ، كما قال بريفو ، ولكنهم استعاروا من العرب أيضاً أساليب التعبير حتى عن ميولهم الغريزية الفاجرة التى أحسّوها ، وأعوزتهم القدرة على الإفصاح عنها ؛ فما من أساليب استعملوها ، سواء أكانت مهذبة أم فجة مبتذلة ؛ وما من عواطف صوّروها ، سواء أكانت عفيفة أم غير عفيفة ، إلا ويجد المطلع على الشعر العربىّ مصادرها واضحة ملموسة . . . وزيادة فى الإيضاح نقول إنهم وجدوا فى الشعر العربى قصائد تعبر عن نفس اللهفات الحسية التى ألهبت جوانحهم ، فلم يكلفوا أنفسهم مشقة امتحان لهفاتهم ، والتعبير عنها كما أحسوها ، ولكنهم حاكوا تلك القصائد العربية معنى ومبنى ، كما حاكوا غيرها من مختلف أنواع الشعر العربىّ .

لقد سما بعض الشعر العربى ، وأسفّ بعضه الآخر ، فالشعراء العرب لم يكونوا من طراز واحد ، ولم ينحتوا منظومهم من معدن واحد ، بيد أن أوربا ، حين اطلعت على الشعر العربىّ ، وأدركت قيمته ، وحاولت احتذاءه ، لم تغربله وتقتبس منه أرقى أنواعه ، ولكنها أقبلت فى نهم على مختلف نماذجه ، تستمد منها المضمون والأسلوب ، منحصرة أول الأمر فى دائرة المحاكاة ، ثم منتقلة إلى مرحلة تفريع المعانى ، وتوليد الجديد من قديمها ، ثم متجاوزة ذلك إلى مرحلة الابتكار ، واكتساب الطابع المستقل .

---

(١) صفحة ٨٤ من كتابه السالف الذكر .

وللتدليل على أن الشعراء التروبادور ، وأسلافهم من شعراء أوربا ، حاكوا الشعر العربىّ فى منظوماتهم ، سواء العفيفة منها وغير العفيفة ، نذكر فيما يلى بعض نماذج من الأشعار التى استقوا منها هذين النوعين من شعرهم .

كان عنترة يستمد الشجاعة والفروسية من ينبوع حبه ، وقد عبر عن ذلك بقوله :

ولقد ذكرتك والرماح نواهل منى وسمر الهند تقطر من دمى

كذلك عبر عن عفته ، واحترامه للمرأة بقوله :

وأغض طرفى إن بدت لى جارتى حتى يوارى جارتى مأواها

واشتهر امرؤ القيس بوصف مغامراته الفاسقة ، ولكنه صادف المرأة العفيفة التى أرغمته على القول :

وثغر أغــر شتيت الثنــايا لذيذ المقبــل والمبتسمْ

وما ذقتــه غــير ظن به وبالظن يقضى علىّ الحكم

وهذه النماذج من الشعر الجاهلىّ تدل على أن العواطف النبيلة بدأت تعمر القلوب ، وأن العرب أخذوا يتهيأون وقتذاك لتقبل تعاليم الإسلام السامية .

وقد طوّر أحد الشعراء العباسيين معنى « امرئ القيس » الوارد فى بيته المذكور أخيراً ، وصاغه على النحو التالى :

يا أعذب الناس ريقاً غير مختبر إلا شهادة أطراف المساويك

وقال جميل بن معمر ما يشبه ذلك المعنى فى هذين البيتين :

لا والذى تسجد الجباه له مالى بما دون ثوبها خــبرُ

ولا بفيها ، وما هممت به ما كان إلا الحديث والنظر

وقال أيضاً :

ولتعلمى أنِ ما استودعتنى ثقة تمسى وتصبح عند الحافظ الواعى

وقال ابن زيدون الأندلسى :

سأقنع منك بلحظ البصرْ وأرضى بتسليمك المختصرْ

ولا أتخطّى التماس المنى ولا أتعدى اختلاس النظرْ

أصونك من لحظات الظنو ن وأعليك عن خطرات الفكرْ

وقال أبو المغير بن حزم الأندلسيّ :

ونلتُ سقاطا من حديث وعاقنى تَنَزُّهُ حرٍّ عن خنا ، وتعفُّفُ
يساعدنى تحت النقابين منظر ويسعدنى تحت اللثامين مرشفُ

ونعود إلى الشعر العذريّ الطاهر فنذكر قول جميل :

وإنى لأرضى من بثينة بالذى لو ابصره الواشى لَقَرَّتْ بلابلهْ
بلا وبأن لا أستطيع ، وبالمنى وبالأمل المرجوّ قد خاب آمله
وبالنظرة العجلى وبالحول تنقضى أواخره لا نلتقى وأوائله

ولا علاقة بين حب المجنون لليلى ، وحسن رونقها ، فهو يقول :

وشبّ بنو ليلى وشب بنو ابنها وأعلاق ليلى فى فؤادى كما هيا

وحبيبته تشغله عن أقدس المقدسات ، وتحمله على السجود لها :

وكنت إذا صلّيتُ يمّمت نحوها بوجهى وإن كان المصلى ورائيا

ويقترب كثيِّر إلى هذا المعنى فى قوله السابق الذكر :

رهبان مدينَ والذين أراهموا يبكون من خوف العذاب هجودا
لو يسمعون كما سمعت حديثها خروا لعزة ركعاً وسجودا

ويصف لنا ابن الطثرية ما تتصف به حبيبته من جلال ومهابة فى قوله :

بنفسىَ من لو مَرّ بَرْدُ بنانه على كبدى كانت شفاءً أناملهْ
ومن هابنى فى كل أمر وهبته فلا هو يعطينى ولا أنا سائلهْ

وقال الشاعر يصف بعد منال حبيبته :

وكنتَ إذا أرسلت طرفك رائداً لقلبك يوماً أتعبتك المناظر
رأيت الذى لا كله أنت قادر عليه ولا عن بعضه أنت صابر

ووصف الشعراء العرب المرأة الحييّة المتحلية بالطهر الساذج . . . قال عبد الله ابن عجلان :

خودٌ رداحٌ طفلة ما الفحش من أخلاقها
ولقد ألذّ حديثها وأسرُّ عند عناقها

وقال أبو قيس بن الأسلت :

ويكرمها جاراتها فيزرنها وتعتل عن إتيانهن فتُنْذَرُ

وليس لها أن تستهين بجـــارة ولـــكنها منهن تحيا وتخفر

وقال آخر :

بنفسي وأهلي من إذا عرضوا له ببعض الأذى لم يدر كيف يجيبُ
ولم يعتذر عذر البرىء ولم تـــزل به سكتة حتى يقال مريبُ

والشعر العربي ملىء بوصف اعتداد المرأة بنفسها ، واعتزازها بجمالها . قال البحترى :

مخلفٌ فى الذى وَعدْ سيلَ وصلا فلم يجدْ
وهـــو بالـــدل مستبـ ـد وبالحسن منفردْ . . .

وقد سبق أن أشرنا إلى بيت المتنبي الرائع :

وغضبى من الإدلال سكرى من الصبا شفعتُ إليها من شبابى بريِّق

والشاعر العربى يخشى أن يخطر له عن حبيبته خاطر مريب :

وإنى لأستحييك حتى كأنما علىّ بظهر الغيب منك رقيبُ

وهو يعف حتى عندما يعانق حبيبته ويلثمها . . . قال الشريف الرضىّ :

بتنا ضجيعين فى ثوبى هوى وتقى يلفنا الشوق من فرع إلى قدم
وبات بارق ذاك الثغر يوضح لى مواقع اللثم فى داج من الظلم
يشى بنا الطيب أحياناً وآونة يضيئنا البرق مجتازا على إضم
ثم انثنينا ، وقد رابت ظواهرنا وفى بواطننا بعد من التهم
وقمتُ أنفض برداً ما تعلّقه غير العفاف وراء الغيب والكرم

ورجع المغيرة بن حزم الأندلسىّ إلى هذه الأبيات فى قوله :

بتنا وبات المسك فينا واشيا بمكاننـــا والحلىُ عنـــا مخبرا
والليل يلحفنى سرابيل الدجى جهلا ، وقد عانقتُ صبحاً مسفرا

والاتصال الجسدى لا يروى غلة ابن الرومى، ولكن يرويها الاتصال الروحى :

أعانقها والنفس بعدُ مشوقة إليها وهل بعد العناق تدانى
وألثم فاها كىْ تزول حرارتى فيشتدّ ما ألقى من الهيمان
كأن فؤادى ليس يروى غليله سوى أن يرى الروحان يمتزجان

وقال المتنبي :

وما كل من يهوى يعفّ إذا خلا عفافي ويرضى الحرب والخيل تلتقي

والاسترسال فى نقل مثل هذه النماذج يطول أمره ، والمقام لا يتسع له برغم أهمية الشعر العربى العفيف الذى أقر أئمة من مفكرى الغرب ، كما سبق القول ، بأثر الدور الذى لعبه لا فى بعث النهضة الأوربية الأدبية وحسب ، ولكن فى بث العواطف النبيلة بين جوانح الأوربيين ، وتهيئتهم للانتقال من الإسفاف الهمجىّ إلى السمو الحضارىّ .

وآن أن نذكر نماذج من الشعر العربىّ الذى حرص ناظموه على تصوير ما شفهم من اللواعج الحسية حتى لايتركوا لوناً من ألوان الأحاسيس والميول دون أن يعبروا عنها :

وقد ذكرنا لامرئ القيس شعراً يتنصل فيه من مظنة تقبيل حسناء ، ولكنه فى معلقته ، وفى غيرها من شعره ، لم يتورع عن تصوير تفاصيل اتصاله الجنسىّ بالنساء...

ومن أشهر شعر النابغة الذبيانى قوله :

سقط النصيف ولم ترد إسقاطه فتناولته واتقتنا باليد

وقال علقمة الفحل :

خليلىّ مُرّا بى على أم جندب « لنقضى لبانات » الفؤاد المعذَّبِ

وقال ابن حصين الراعى :

يناجيننا بالطرف دون حديثنا « ويقضين حاجات » وهن موازح

وسبقت الإشارة إلى عمر بن أبى ربيعة المعروف بغزله المكشوف . ومن شعره قصيدته الرائعة التى يصف فيها مغامرة غرامية جريئة . وقد جاء فيها :

وحييتُ إذ فاجأتها فتولهت وكادت بمكنون التحية تجهرُ
وقالت وعضّت بالبنان فضحتنى وأنت امرؤ ميسور أمرك أعسرُ
وبت قرير العين أعطيتُ حاجتى أقبل فاها فى الخلاء فأكثر

وقد حاكى أبو المغيرة الأندلسىّ هذه الأبيات بقوله :

وما ظبية أدماءُ تعروا أراكها وتعطو وقد وافى بريرٌ وعُلَّفُ[1]

(١) البرير والعلف ثمار الأراك والطلح .

بأحسن منهـا يوم ريعت لزورتى فراغت إلى أترابهـا تتشوفُ
فقلت لهـا بعض الذى بك ، فانثنت وأنجـز ميـعادا بخيـل مسوِّفُ

ووصف الفرزدق أيضاً إحدى مغامراته الغرامية بقصيدة قال فيها :

هما دلّيـانى من ثمانين قامـة كما انقض باز أقمعُ الريش كاسره
فلما استوت رجلاى فى الأرض قالتـا أحىّ يرجى أم قتيل نحـاذره ؟
فقلت ارفعـا الأمراس لا يشعروا بنا وأفلتُّ فى إعجـاز ليـل أبادره

وأثارت هذه الأبيات تقزّز جرير ، فعلق عليها بقوله :

لقد ولدت أم الفرزدق فاجـرا فجاءت بوزْوازٍ قصير القوادم
يوصِّل حبليـه إذا جنّ ليـله ليرقى إلى جـاراته بالسلالم
تدلّيتُ تزنى من ثمانين قامة وقصّرتَ عن باع العلا والمكارم
هو الرجس يا أهل المدينة فاحذرو مُداخـل رجس بالخبيثات عالم

وعبر بشار عن الغرائز الدنيا ، دون تورع ، بقوله :

أمتَتـا بَـدَّدَ هـذا لعبى ووشاحى حَلُّهُ حتى انتَشَرْ
فدعـينى معـه يـا أمتـا علّنـا فى خلوة نقضى الوطرْ ...
أيها النوّام هبـوا ويحـكم واسـألونى اليـوم ما طعم السهر

ومما قاله عباس بن الأحنف على لسان حبيبته :

يا ليت عباس سربال على جسدى أو ليتنى كنت سربالا لعباس

وتنازعته شهوته الحسية ، وحرصه على الاستمساك بالعفة ، فجمع بين هذين النقيضين فى البيتين التاليين :

أتأذنون لصب فى زيارتـكم ؟ فعنـدكم شهوات السمع والبصر
لايضمر السوء إن طال الجلوس به عفّ الضمير ، ولكن فاسق النظر!

وقال ابن الرومى :

يا حبذا ليل أيلول إذا بردت فيه مضاجعنا والريح سجواءُ
وَجمَّش القُرُّ فيه الجلد فائتلفت من الضجيعين أحشاء فأحشاءُ

وقال آخر :

فبتنا جميعاً لو تراق زجاجـة من الخمر فيما بيننا لم تُسَرَّبِ

وقال ابن هانئ الأندلسيّ :

والله لولا أن يسفهنى الهــوى ... ويقول بعض القائلين تصابى
لكسرتُ دملجها بطيب عناقها ... ولثمتُ من فمها البرود رضابا

وقال أبو بكر بن بقى الأندلسيّ :

عاطيته والليل يسحب ذيــله ... صهباء كالمسك العتيق لناشق
حتى إذا مالت به سنةُ الــكرى ... زحزحتــه شيئاً وكان معانقى
أبعدته عن أضلع تشتاقــه ... كى لا ينام على وساد خافق

وقال ابن شرف القيروانى الذى أقام بالأندلس :

وزائــرة طردت لهــا منامى ... وقد عقد الكرى راحا براح
وأدناها الهــوى حتى أذلت ... وباتت بين ريحان وراح

وبلغت الأبيات التالية غاية التهتك ، وهى للحصرىّ الضرير :

وهبتُ قواى للحدق الضعاف ... وإن كانت بسفك دمى تُكافى
ولمــا أينعتْ رمّانتــاهــا ... ونادى الوصل : حىّ على القطافِ
تأذّتْ فيهما بفمى ، فقالت ... شمائل عاشق وفعال جانى

ومما قاله ابن الزقاق البلنسى :

وآنسة زارت مع الليــل مضجعى ... فعانقت غصن البان منها إلى الفجر
أسائلها أين الوشاح وقد غــدت ... معطّلة منــه معطّرة النشر
فقالت وأومت للسوار نقلتــه ... إلى معصمى لما تقلقل فى خصرى

وقال أيضاً :

ألمّت فبات الليل من قِصَرٍ بهــا ... يطير ولا غير السرور جناح
وبتُّ وقد زارت بأنعم ليــلة ... يعانقنى حتى الصباح صباح
على عاتقى من ساعديها حمائل ... وفى خصرها من ساعدىّ وشاح

ودواوين العرب فى المشرق والمغرب مليئة بمثل هذا الشعر الذى لم يكد ينتقل إلى أوربا حتى راج بين أدبائها رواجاً كبيراً ، وأمد بعض شعرائها بالمعانى التى أثارت عاصفة من المدح والقدح لم تهدأ إلى اليوم . . .

ويتوسط هذين التيارين المتناقضين المتطرفين من شعر الغزل العربى ، تيار ثالث معتدل هو الغالب على ما عداه ، وهو المنبع الذى استقى منه الشعراء التروبادور ، ومن تلاهم من الشعراء الأوربيين ، أغلب معانيهم العاطفية . . . وتدور هذه المعانى حول جمال الحبيبة ، وسحر دلالها ، وعذاب العاشق ، وسوء حاله ، وتعلقه بأمل ميئوس منه بدل استسلامه لراحة اليأس . ومما ورد فى كثير من الشعر العربى قول الشاعر إنه يتباعد عن حبيبته ، ويتظاهر بعدم الاكتراث لها درءاً للظنون ، ويعانى من ذلك مر العذاب . وقد ردد الشعراء التروبادور هذا المعنى ، ومن ذلك قول « جيوم دى جابستان » : « ما من أحد يعانى عذاباً أشد مما أعانيه ، فأنا أتظاهر أمام الناس بأنى أنكرك . . . أتظاهر بأنى لا أعرفك ولا أحبك ، فى حين أنى لا أتوق إلى أية امرأة سواك » .

وتكرر فى الشعر العربى معنى البيت الآتى المنسوب إلى جميل بن معمر :

أصون سرك فى قلبى وأحفظـــه إذا تضايق صدر الضيِّقِ الباع

ورددده كثيرون من الشعراء التروبادور ومنهم برناردى ڤينتاردرن الذى قال :

« لم أذكر لأحد قط اسم التى لم أكذبها القول يوماً عن قصد . فليس من الحكمة أن يكشف عن سريرته عاشق تحسن حبيبته معاملته . . . »

وقد طابق روبير بريفو بين معانى جيوم دى بواتييه ، رائد الشعر العاطفى الفرنسى ، ومصادرها العربية ، فقال :

« إن العاطفة الحماسية التى فجرتها المرأة فى ذلك العهد ، وأصبحت — أى المرأة — موضوعاً لها . . . هذه العاطفة وجدت خير تعبير عنها فى كلمة " الطرب " ؛ وقصيدة جيوم دى بواتييه التاسعة التى تتضمن التسبيح بآلاء العاطفة المذكورة توحى بأن " الطرب " كان له وجود فى پروڤانس ، لفظاً ومعنى ، وقت نظمها . والشعر الأندلسى كان يفيض قبل ذاك بمثل هذا التسبيح . . . لقد تحددت أوضاع الرابطة بين المحب وحبيبته . ومما قاله ابن حزم فى " طوق الحمامة " إنى أذكر هنا خمسين فصلاً عن أصول الحب وقواعده . . .

« ووصف جيوم دى بواتييه فى كل من قصائده السابعة والثامنة والتاسعة والعاشرة غطرسة المرأة وقسوتها ، ووصفه هذا مستمد من قول ابن حزم : " إن الغزال

استأسد " ومن وصف ابن قزمان لحبيبته بأنها ذات أنفة وقسوة ؛ ومما قال چيب فى ذلك : " إن موضوع قسوة الحبيبة يستغرق باباً بأكمله من أبواب مذهب الحب العذرىّ . . " »

والقصيدة السابعة للشاعر المذكور تعبر عن أوجاع العاشق المصدود . . . ومما قاله ابن حزم فى ذلك : — « إن صدك يجعلنى أشتى الناس ، بيد أنى أستعذب حتى الموت فى سبيلك » . . .

والقصيدتان التاسعة والعاشرة تصفان وجوم العاشق وتهيبه إلى حد العجز عن الاعتراف بحبه . وقد قال أكثر من شاعر عربى إن الحب الطاهر العاطفة لا يبوح بسره . . .

وتتحدث القصيدة السابعة عن التشبث بالصبر ؛ ومما قاله ابن داود فى ذلك : « إن الذى لا يستطيع إقامة الدليل على صبره يغلبه البكاء » . . .

والقصيدة التاسعة تمتدح صفات المرأة السامية ، وقد وصف ابن قزمان حبيبته بقوله إنها سلطانة بين النساء . . .

والقصيدة السابعة تعد الحب مصدر كل فضيلة . . . وقد ذكر ابن حزم هذا المعنى فى قوله : «من كان غير أهل للحب والفروسية فهو غير أهل للحب الطاهر » .

وجاء فى القصيدة السابعة أيضاً أن الحب الحافظ للعهد على طرفى نقيض من الوغد . . . وقد سبق لابن داود أن عبر عن هذا المعنى بقوله فى طوق الحمامة : « لا يحيد عن الإخلاص إلا الوضيع الأصل ، المجرد من كل إحساس مهذب »[1] .

وفى القرن الثالث عشر تفشى الانحلال فى أوصال الدويلات الأندلسية المفككة ، وانعكس ذلك على الشعر الأندلسىّ الذى انحلّ بدوره ، وراح ينضح بالضعف الذى اعتور مجتمعه ؛ وافتقد الشعراء أصالتهم فعجزوا حتى عن صدق التعبير عن ذلك الضعف . لقد فترت مشاعرهم فاصطنعوا العواطف الزائفة ، ونضب خيالهم فافتعلوا المعانى المبتذلة . وانتقلت العدوى إلى پروڤانس ، وظهر أثرها فى منظومات الشعراء التروبادور الذين لم يكفوا عن محاكاة الشعر العربىّ حتى وهو يعانى محنة الانحلال ... وفيما يلى بعض المعانى العربية المفتعلة التى كررها أولئك الشعراء .

---

(١) هامش ١٧٠ ، ص ١٩٣ ، ١٩٤ من كتابه السالف الذكر .

قال « رينو وار » فى كتابه « مختارات من الشعر » ، وهو يتحدث عن الشاعر « چوسليم فيدى » (١١٩٠ — ١٢٤٠) : « إن السعادة التى كان العاشق ينشدها فيما مضى لم تعد تستهويه ، فهو يعمل على إبعادها ، وينكر أية رغبة فى التماسها ...»

وقال « ماهن » عن الشاعر « دى كايدُوىْ » ، فى كتابه « أعمال الشعراء التروبادور» : « إنه يصارح حبيبته بأن ابتسامة واحدة من حبيبته تكفيه ، وتجزيه خير الجزاء » .

وقال « ماهن » أيضاً فى كتابه المذكور : « إن الشاعر ريكييه يجد أوفى جزاء حتى فى نظرة رضى من حبيبته »[1].

وقال « رينووار » فى كتابه « مختارات من الشعر » : — « كان أولئك الشعراء يلجأون إلى زخارف الخيال للتعبير عن اكتفائهم من حبيباتهم بأقل شىء يجدن عليهم به . فالشاعر "دى سان ديدييه " يقول إن السعادة تغمره إذا أعطته حبيبته فتلة واحدة من سترتها أو من قفازها » .

كذلك أورد « ماهن » فى كتابه السالف الذكر قول ريكييه : « مما يُسْعِدُ العاشق أن تتنازل مالكة فؤاده فتتخذ منه عبداً . . . »

وذكر ريتووار فى كتابه السابق الذكر قصيدة للشاعر « أوجييه » قال فيها : « إذا سر الحبيبة الحسناء أن تراه وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة فإنه يعد هذه النهاية التى تضع حداً لآلام شهيد الحب أعذب ميتة » .

وقد أسفّ أولئك الشعراء كل الإسفاف إذْ وصفوا الطرب الذى يستخفهم وهم يتمرغون تحت أقدام حبيباتهم ، وإذ زعموا أن دمعهم المنهمر لا ينقطع أبداً ، وأن عيونهم لا تذوق النو م طوال الليل والنهار ، وأن حبيباتهم يزددن قسوة على الدوام . وقد أصبح تصنعهم تقليداً استفحل على مر الأيام ، وازدادت مبالغاتهم حتى جاوزت كل حد . وأعوزتهم البلاغة فاستعملوا الأسلوب الطنان ليعبروا عن المعنى البسيط ، وأسهبوا فى الشرح حيث تغنى العبارة الواحدة عن القول المستفيض ، وناء أسلوبهم بالكنايات والاستعارات المتكلفة ؛ وقد أشار « أنجلاد » إلى ذلك فى قوله : « انحل الشعر العاطفى الغنائى وقتئذ انحلالاً تاماً ، وكان ذلك نهاية لمرحلة تطوره

(١) هناك فرق كبير بين هذا المعنى المبتذل ومعنى البيت العربى القديم ، السابق الذكر وهو :
أليس قليلا نظرة إن نظرتها إلى ، وكلا ليس منك قليل

خلال القرن الثالث عشر . . . وأصبح التعرّف عليه مستحيلا بعد الشكل الذى اتخذه فى أواخر أيامه . . . »[١] ومن الواضح أنه حتى المعانى المذكورة المبتذلة مقتبسة من الشعر العربى الذى غشيه الانحلال .

ومن الأسباب الفعالة التى أنضبت معين نهضة پروڤانس الأدبية تلك الحرب الوحشية التى شنها البابا إنوسون الثالث على جنوب فرنسا متذرعاً بأن شعراءها وقعوا تحت تأثير الشعراء العرب « الكفرة » المتهتكين ، وحاكوهم فى نظم الشعر الداعر المروّج للفسق والفجور . . . ومن المعروف أن هذه الذريعة لم تكن السبب الرئيسى لتلك الحرب التى استهدفت غزو « پروڤانس » ، ونهب خيراتها ، وضمها إلى شمال فرنسا . وقد استطاع بعض الشعراء التروبادور أن ينجوا من بطش جيوش الشمال ، ويهربوا إلى شمال إيطاليا حيث وجدت النهضة الأدبية الأوربية ملجأ أميناً ، وبيئة صالحة لترعرعها . فاستعادت جدتها وحيويتها ، ولم تلبث أن زحفت إلى سائر أرجاء أوربا ، وعبرت المانش إلى إنجلترا ، وآذنت ، كما سبق القول ، بحلول عصر النهضة .

* * *

لقد أطلنا الحديث عن شعر الغزل العربىّ لأن عاطفة الحب التى عبر عنها كان لها ، كما قلنا ، أكبر الأثر فى تهذيب النفوس ، ورفع مستوى الحضارة البشرية . ولأنه كذلك لم يؤثر فى شعر أوربا فحسب ، وإنما أثر فى غيره من مختلف أفرع أدبها ، فقد استمدت منه قصصها ومسرحياتها ومقالاتها نفحات من مضامينه ومعانيه وتشبيهاته ، وتعبيراته الرقيقة الدقيقة . . . فما من فكرة أو معنى أو وصف أو تعبير فنىّ يبهر المطلع على تلك الفنون الأدبية إلا وفى الشعر العربى أصل له . أو شبيه به . . . وليت المقام يتسع لندلل على هذه الحقيقة بمزيد من الأمثلة . وحسبنا أن نشير إلى أن رأى الكثيرين من المفكرين الأوربيين يتجه الآن إلى أن الشعر العربى تغلغل إلى أغوار النفس البشرية ، وعبر عن كل خفقة اختلج به قلب إنسان .

ومن أبواب الشعر العربىّ أيضاً باب المديح ، وباب الرثاء ، وهذان البابان متشابهان ، فلا فارق بينهما إلا أن الممدوح فى الباب الأول متمتع بالحياة ، فى حين

---

(١) ص ٢٩٨ من كتابه « الشعراء التروبادور » .

الممدوح فى الباب الثانى أدركته الوفاة . وأغلب الناس لا ينظرون إلى شعر المديح بعين التقدير على أساس أن القصد منه خلق الممدوح واستجداؤه . ولكننا إذا أسقطنا من هذا الشعر شوائبه نجد أن الجيد المختار منه يزيدنا علماً بنواحى الخير فى النفس البشرية ، ويسلط الضوء على سجاياها ، ويحلل نوازعها الطيبة . فهو لا يختلف فى ذلك كثيراً عن القصص والمسرحيات التى تصوّر لنا الشخصية الخيّرة . . . وإذا أضفنا باب الهجو إلى باب المديح — وأسقطنا منه أيضاً ما اشتمل عليه من سباب وفحش فى القول — نجد أن شعر هذين البابين يشتمل على نقد النماذج المختلفة من الناس ، ويكشف ما يتناهبها من نوازع الخير والشر المتناقضة ، وينوّه بفضائلها ، ويسخر من نقائضها . . . وإذا رجعنا إلى القصص والمسرحيات الأوربية وجدنا أنها نهجت ، منذ عصر النهضة ، نهج شعر المديح والهجاء فى تحليل سلوك الناس ، والإشادة بفضائلهم والسخرية من عيوبهم ، وتصوير مختلف أنماطهم .

وهناك شعر الفخر الذى كان له شأن كبير فى عصر الجاهلية . وهو يشبه أيضاً شعر المديح ، ولكن الشاعر لا يمتدح فيه صاحب جاه أو سلطان ، ولكنه يفتخر بصفاته النبيلة ، ويشيد بفضائله وفضائل قومه ورجال قبيلته ، ويصف الحروب التى خاض غمارها ، ويباهى بجهاده وجهاد قومه فى سبيل صون شرفهم ، والذود عن ديارهم ونسائهم وأطفالهم ، والأخذ بثأر من مات من فرسان عشيرتهم . ويكتسب هذا الشعر أهميته الكبيرة من تسجيله لصفات الفروسية السمحة الكريمة التى ظهرت شواهدها فى أوربا بعد ذلك بقرون عديدة ، وحرص الفرسان الأوربيون على التحلى بها بعد أن تلقنوها من الفرسان العرب ، وحققوا بتأثيرها خطوات واسعة فى سبيل التقدم الحضارىّ . وقد ألحّ بعض مؤرخى الغرب فى إنكار قيام صلة بين فروسية أوربا فى العصر الوسيط والفروسية العربية ، زاعمين أن الفرسان الأوربيين اكتسبوا صفاتهم من ظروف محلية ، ومن تعاليم المسيحية ، متناسين ثبوت هذه الصفات بتفاصيلها فى سجل الشعر العربى القديم .

والرأى الشائع أن باب الوصف فى الشعر العربى فقير لا يتناول إلا ما يمس مصالح الشاعر أو يستثير مخاوفه ؛ فالمطايا من إبل وخيل ، والصحراء الموحشة .

وحيواناتها الضارية ، وأدوات الحرب ، هى أهم ما ينعكس فى شعر ذلك الباب . . . ولكن الواقع يخالف هذا الرأى، فقد وصف العرب الطبيعة فى مختلف مشاهدها . . . وصفوا الغياض والرياض يانعة زاهية تحت أشعة الشمس، وريّانة طيبة الأنفاس بعد سقوط الأمطار ؛ ووصفوا الجبال والوديان ، وأمسيات القمراء ، والسماء المرصعة بالنجوم ، والجداول والبحيرات التى تشوق الناظر بمنظرها الساحر ؛ ووصفوا الشروق والغروب والشفق والغسق ، وزقزقة العصافير ، وصدح البلابل والشحاريير والكِرْوان .. ووصفوا الأنهار والبحار فى حالتى هدوئها وثوراتها ؛ ووصفوا أشجار النخيل والسرو والبان ، ومجالس الشراب تحت أفياء الكرم بين الخضرة والماء . . . ووصفوا كذلك ما أبدعه الإنسان من آيات الفن ومشاهد العمران مثل القصور وتحفها الفنية ، والنافورات والبرك الصناعية ، والبساتين المزدانة بتماثيل الأسود التى تمجّ الماء ؛ ووصفوا المدن الكبيرة ، وشوارعها الفسيحة » ؛ ووصفوا مجالس الرقص والغناء ، وملابس الرجال والنساء ، ومختلف ألوان الطعام والشراب . . .[1]

ونجمل ما تقدم فنقول إن الشعراء العرب وصفوا فى دقة رائعة كل ما وقع تحت حسهم وبصرهم من روائع ما أبدعته الطبيعة ، وما صنعه الإنسان ؛ والذى يرجع إلى الأعمال الأدبية الأوربية ، سواء الشعرية منها أو القصصية ، والقديم منها أو الجديد ، ويمتحنها دون تحيز ، يجد أنها تكتسب طلاوتها من الأوصاف التى سبق للشعر العربى أن ابتدعها ، أو على الأقل ابتدع جذورها .

ومن مفاخر العرب شعرهم فى الحكم والأمثال ، فشعراؤهم الذين طرقوا هذا الباب لم يكتفوا ، كما قلنا ، بإلقاء نظرة سطحية على مظاهر الحياة ، وسلوك الناس ، ومعاملة بعضهم لبعض . ولم يقتصروا — مثل هسيود وأمثاله من شعراء الإغريق والرومان فى ذلك الأوان — على وصف تلك المظاهر وصفاً ساذجاً ، والاتجاه إلى الوعظ المباشر ، والإرشاد التربوىّ ؛ ولكنهم توصلوا إلى كشف جوانب غامضة من أعماق النفس البشرية ، وأغوار الحياة . وإذا عدنا إلى الآراء الحكيمة التى انتشرت فى أوربا منذ عصر النهضة ، والتى تولد منها عدد من المذاهب الفلسفية

---

(١) كتب الأستاذ الشاعر محمد عبد الغنى حسن سلسلة بحوث جمع فيها ما نظم العرب من شعر فى بعض الأغراض التى ذكرناها . ويقينى أن من يرجع إليها سيجنى منها نفس ما جنيت من فائدة .

ذات الأثر الكبير فى النهوض الفكرىّ الأوربى ، نجد لها أصولاً واضحة فى حكم الشعر العربىّ واتجاهه الفلسفىّ .

وقد لعب الشعراء العرب أيضاً دوراً رئيسيًّا فى ميدان السياسة ، لا سيما فى العصر الأموىّ والعصر العباسىّ ، وناضل كثيرون منهم فى سبيل إحقاق الحق ومجابهة الطغيان ، وذاق بعضهم فى تلك السبيل صنوفاً من الاضطهاد والتنكيل ، بل لاقى فريق منهم حتفه فى معترك الدفاع عن عقيدته . وبذلك لقّن الشعراء العرب أدباء العالم أن رسالة الأدب لا تقتصر على وصف الخوارق ، أو تعبير الشاعر أو الكاتب عن ذاته ، وتهذيب الذوق الجمالىّ ، ولكنها تستهدف أيضاً الغضب للحق ، والعمل على نصرته ، والمشاركة فى اهتمامات المجتمع وتطلعاته ، والتعبير عنها فى صدق وحماسة يعمّقان الشعور بها ، وينيران سبيل تطوير الحياة .

ولم يقصر الشعر العربى فى التعبير عن مختلف المشاعر ، كما قلنا ، فقد عبّر ، علاوة عن ما تقدم عن حب الوطن ، والحنين إليه ، وإلى مراتع اللهو والسرور . . . وتضمن الدعوة إلى السلام ، وإلى الحب والإخاء ، والعفو عند المقدرة ، وإيثار الخير على الشر ، ولم يترك غرضاً من الأغراض السامية إلا دعا إليه .